في الأدب الفرنسي المعاصر

رومان رولان

Romain Rolland

بقلم علي كامل

يطلع علينا رومان رولان بين وقت وآخر من أعماق عزلته في سويسرا بعيداً عن وطنه فرنسا بكتاب أو مقال جديد فيشعر من قرأ هذا الأديب العظيم بحنين زائد إلى قراءة هذا الكتاب أو هذا المقال . ذلك أن رومان رولان كاتب عالميّ الفكر والعاطفة لا يكتب لأمة معينة ولا لشعب خاص ، بل يكتب للعالم أجمع ناظراً إليه كأسرة انسانية واحدة لا تمزقها حدود ، ولا تفرقها لهجات ، ولا تبذر بذور الحقد والضغينة في قلوب أعضائها فكرة الأجناس . لذا كان رومان رولان من أحب الكتاب المعاصرين إلى كل قلب رحيم ونفس واسعة الآفاق . وكتابه عن (مهاتما غاندى) يقربه إلى قلوبنا نحن الشرقيين لأنه وقف فيه موقف المدافع القوى عن الحركة الهندية وشعبها المجيد المهضوم ، كاشفاً القناع عن فضائع الغرب وآثامه في قتل أمة عظيمة بلغت مئات الملايين والوقوف في وجهها بالالتجاء إلى البطش الخسيس حين تنهض مطالبة بحقها في الحياة

ولا عجب أن يبدو ذلك من رجل مثل رومان رولان لم تكد تعلن الحرب الكبرى — وكان وقتذاك في جنيف بسويسرا — حتى أخذ يكتب سلسلة مقالات ملتهبة بالعاطفة الانسانية ، مطالباً فيها بالمبادرة بحقن الدماء وعودة السلام وإنقاذ أرواح الشباب البريء الذى يلعب بعقله خطباء الشوارع مستغلين حرارة قلبه وسمو نفسه في سبيل جشع أصحاب مصانع السلاح ودجل رجال الحكومات . ولقد آثر رومان رولان عداء الرجعيين من أبناء وطنه والصحافة السادية المغرضة التي أثارت عليه الرأى العام الساذج في كل أمة مهما بلغ رقيها ، آثر ذلك على أن يتنازل عن حريته في الفكر والقول ، عن إنسانيته التي هي ثروته الكبرى

* * *

ولد رومان رولان في بلدة كلاميسى Clamecy في اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير عام ١٨٦٦ من أسرة ريفية برجوازية عريقة القدم . وتعلم أولاً في البلدة التي ولد بها . ثم انتقل إلى باريس عام ١٨٨٦ حيث التحق بمدرسة النرمال العليا Ecole Normale Supérieure ؛ وفي عام ١٨٨٩ نجح في امتحان (الأجريجاسيون) في التاريخ والفلسفة ، وفي عام ١٨٩٥ حصل على شهادة الدكتوراه في الآداب برسالة قدمها عن (أصول المسرح الغنائي الحديث) Les Origines du Théâtre Lyrique Moderne وعين بعد ذلك أستاذاً لتاريخ الفن في مدرسة النرمال العليا ، ثم عين أستاذاً في السوربون حيث أدخل مادة (تاريخ الموسيقى) وبقي فيها حتى عام ١٩١١

ابتدأ رومان رولان حياته الأدبية بكتابة عدد كبير من القصص المسرحية ، ولم يكن ذلك منه عفواً بل كان تنفيذاً لفكرة مختمرة في نفسه عن وجوب تجديد الفن المسرحي بالطريقة التي شرحها في سلسلة مقالاته التي كتبها بعنوان (مسرح الشعب) Théâtre du Peuple (١٩٠٠)

كتب رومان رولان من هذه القصص المسرحية Saint Louis (١٨٩٧) — Aërt (١٨٩٨) — Les Loups (١٨٩٨) — Le Triomphe de la Raison. (١٩٠٠) Danton — (١٩٠٢) Le 14 Juillet — (١) (١٩٠٢) Le Temps Viendra

(١) القصة الأولى والثانية والرابعة تدخل تحت عنوان رئيسى واحد هو (مآسى الايمان) Tragédies de la Foi . والقصة الثالثة والخامسة والسادسة تدخل تحت عنوان (مسرح الثورة) Théâtre de la Revolution

ساحباتٍ على الكَثِيبِ أصيلاً ... غَاً رِقاقاً من واضحٍ وخفيّ

ناسجاتٍ شَفَائفَ الأُفْقِ الزّا ... هِي بُروداً على الصباحِ السَّنيّ

ذاب في الأُفْقِ رافقاً فوق هامِ الـ ... ـبِيدِ يَهْمِي على ثَرَى بدويّ

يغسل النومَ من مضاجعِ رُعيا ... نِ الصَّحارى ومضربِ القَرَوِيّ

* * *

عجباً للجلالِ والحُسنِ ما جا ... ءَ في إطارَينِ فاترٍ وقويّ

ينسجانِ الهوى من الفجرِ بُرْداً ... عُلْوِيّاً لشاعرٍ علْوِيّ

صاحَ منْ رُوحهِ وكبّرَ في أعْـ ... ـماقِ دُنْياهُ صارخاً كالصبيّ

أفهذا الجَمالُ يارَبّ ، هذا السـ ... ـحرُ ، منْ أجلِ ذَلِكَ الآدَميّ ؟

أم درمان — سودان

التيجاني يوسف بشير

Le Montespan (١٩٠٤) Les Trois Amoureuses (١٩٠٥)
Le Triomphe de la liberté (١٩١٧) — hiluli (١٩١٩).

وفي مقالاته عن (مسرح الشعب) نادى رومان رولان بأن يكون المسرح متحرراً من بورجوازيته أي من اقتصاره على رسم ألوان الحياة الدائرة بين الطبقات الوسطى والغنية، لأن هذه الطبقات لا تكوّن إلا جزءاً ضئيلا من الأمة. فاقتصار موضوعات الكتاب المسرحيين عليها يحرم المسرح من أن يكون معبراً عن روح الشعب الحقيقية وآماله التي لا تلمسها إلا في الطبقات الفقيرة وهي الكثرة في كل شعب. كذلك هاجم رومان رولان المسرح الكلاسيكي والمسرح الرومانتيكي داعياً إلى أن يكون الفن المسرحي صدى لتفكير العصر الذي نعيش فيه، وأن يكون ممهداً الطريق لمجتمع جديد. وبرغم أن رومان رولان بقي حتى الحرب الكبرى لا يعلن فكرته السياسية المحددة، فان كل كتبه كانت تفيض بتمجيد الحرية والأحرار وبنزعة إنسانية عظمى. ولقد كان هذا المجتمع الجديد الذي يرمي إلى التمهيد له هو ذلك الذي تحيا فيه الطبقات الفقيرة المهضومة حياة حرة كريمة، وتجد بين أحضانه أكبر قدر من الحنان والتقدير.

على أننا ونحن في انتظار ذلك اليوم المطوي في ثنايا الغيب يرى رومان رولان وجوب أن نعد الشعب لتقبل ذلك المجتمع الجديد، وما ذلك إلا بأن نهيىء الفرد لبلوغ أعظم درجة مستطاعة من الكمال الانساني حتى يقابل كل تطور جديد بقلب مفتوح وصبر جميل. ولذا نرى رومان رولان (أخلاقياً) يطالب الفرد بأن يكون قوي الخلق عظيم النفس، حنون القلب محباً لكل الناس، راغباً في معرفة كل شيء، مستعذباً التضحية في سبيل الفكرة السامية. فبهذا وحده نستطيع أن نقبل راضين مجتمعاً جديداً مترفعاً عن الدنايا كارهاً لضروب الرياء الذليل، بعيداً كل البعد عن الأنانية الحيوانية. ولهذا أيضاً كان رومان رولان يهيم بحياة الأبطال الذين يرى فيهم مثلاً أعلى لما يجب أن يكون عليه الفرد من الفضائل. فتراه يكتب — كما ذكرنا — قصتيه المسرحيتين (سان لويس) و(دانتون). ثم تراه يكتب بعد ذلك ثلاث تراجم بعنوان (حياة الرجال المشهورين) Vies des Hommes Illustres أولاها عن (حياة بيتهوفن) Vie de Beethoven (١٩٠٣) والثانية عن (حياة ميشيل آنج) Vie de Michel Ange (١٩٠٦) والثالثة عن (حياة تولستوي) Vie de Tolstoi (١٩١٣)، ثم أخيراً يصدر كتابه الشهير عن (مهاتما غاندي) Mahatma Ghandi (١٩٢٦)

ويرى رومان رولان أننا في عصرنا الحاضر أحوج ما نكون إلى دراسة أولئك الأبطال (لأن أوروبا الآن يغشاها جو خانق مفعم بالرذيلة. إذ طغت المادية الوضيعة على الفكر .... إن العالم يختنق. فلنفتح النوافذ حتى يدخل الهواء الطلق العليل. فلنستنشق نفثات الأبطال)[1] وما هؤلاء الأبطال إلا أولئك الذين نرى فيهم — كما يقول رومان رولان — (روح البطولة. ورجاحة العقل والابتسامة الدائمة، وشهوة النور والمعرفة. تلك الصفات التي نراها في فرنسا في رابليه وموليير وديدرو، وبين الموسيقيين نستطيع أن نقول بيرليوز وبيزيه لأنه لا يوجد خير منهما)

على أن رولان يرى في بيتهوفن وميشيل آنج وتولستوي عبقرية لم يجدها في أبناء وطنه. فيرى في بيتهوفن الشخص (الذي منه تنتقل عدوى الشجاعة الخارقة. والاحساس بالسعادة في الكفاح، وتغلب الضمير الذي يشعر في نفسه بأنه إلـه). ويرى في تولستوي (ذلك النور الذي انطفأ، والذي كان لأبناء جيلين أطهر نور أضاء شبابهم) وهو يجد فيه أيضاً (الصديق الحقيقي الوحيد بين كل رجال الفن المعاصر). ولسنا في حاجة إلى تأكيد الصلة الوثيقة بين تولستوي ورومان رولان، إذ أن تولستوي هو الكاتب الوحيد بين الكتاب الحديثين الذي طالب بأن تكون رسالة الفنان أخلاقية ودينية. وهذا هو أظهر ما يميز فن رومان رولان ودعوته

ونحن إذا نظرنا الآن إلى هؤلاء الثلاثة الذين يمجدهم رومان رولان رأينا أن أولهم ألماني، والثاني ايطالي، والثالث روسي. فكأنه لم يجد بين أبناء وطنه مثله الانساني الأعلى. لذا كان ذلك داعياً إلى أن يجد رومان رولان عدداً ليس بالقليل من النقاد الفرنسيين يتهمونه بانتقاص العبقرية الفرنسية والطعن فيها. والواقع أن رومان رولان كان دائم اللوم لأبناء وطنه على (شدة تأثرهم بالأوهام الخداعة التي تصوغها الخطب الرنانة) وكان يصرح دائماً (بكرهه لذلك النوع الجبان من المثل الأعلى الذي يدير العيون عن بؤس الحياة وضعف النفس. إن البطولة الكاذبة

(١) راجع مقدمة كتاب (حياة بيتهوفن)

جبن ونذالة . فليس هناك إلا نوع واحد من البطولة . تلك هى التى ترى الحياة كما هى وتحبها)

والعجيب أن رومان رولان عنـد ما أراد أن يرسم صورة خيالية تتجمع فيها فضائل أبطاله السابقين لم يجعل بطلها فرنسياً بل ألمانياً . فكتب قصة (جان كرستوف) Jean Christophe (١٩٠٤ — ١٩١٢) وبطلها جان كرستوف ـ موسيقى ألمانى (تتلقلت فيه نفس بتهوفن العظيمة . فصلّبت أعضاءه ونفسه وبدت كأنما جعلت حجمها ضخما هائلاً . لقـد كان يتجه نحو العالم . كان كجبل شامخ تدوى بين أرجائه العواصف ، عواصف الحرارة والحماسة ، عواصف الهم الدفين ، آه ! يا له من همّ ! على أن ذلك لم يؤثر بشيء ! كان يحس بنفسه وافر القوة ؟ ... العذاب ! العذاب أيضاً ! ... آه ! ما أجل أن يكون المرء قوياً ما أجل أن يتعذب المرء عند ما يكون قوياً ! . . .)

وقصة (جان كرستوف) تقع فى عشرة أجزاء ، وهى فى نظر النـاقد أندريه بيي أقرب الى أن تكون ترجمة لشخصية خيالية من أن تكون قصة ؛ وهى ـ كسائر أعمال رومان رولان ـ تفيض بالضمير الحر والحب النبيل والموسيقى الرائعة (١)

وليس إعجاب رومان رولان ببيتهوفن قاصراً على كونه نموذجاً للبطل الذى ينشده مما دفعه لأن يرسم شخصية (جان كرستوف) ماثلة له ، بل أيضاً لأنه (امام الموسيقيين) ، و(الموسيقى الالهية) عند رولان كأبطاله بمثابة (الضوء الذى ينير حياته) ولقد رأينا كيف كان له الفضـل فى إدخال مادة (تاريخ الموسـيقى) فى السوربون حين عين أستاذاً فيها . كما أنه كتب فضلا عن دراسته الخالدة عن بتهوفن عدة دراسـات أخرى فى الموسيقى . منها Musiciens d'autrefois (١٩٠٨) و Musiciens d'aujourd' hui (١٩٠٨) و Haendsl (١٩١٥) ذلك أن رومان رولان يرى ـ ككاتب أخلاق ـ أن الموسيقى خير مهذب للنفوس المريضة ، وأعظم حافز للعواطف الخامدة ، كما أن الموسيقى العبقرى يستطيع أن يجعل موسيقاه خـير تعبير عن روح العصر وآماله وظروفه الملموسة

(البقية فى العدد القادم)

على أدهم

(١) André Bill. La Littérature Française Contemporaine p.163

القصص المدرسية

يصـــدرها

سعيد العريان امين دويدار محمود زهران

خريجو دار العلوم

« إنها رجولة عالية تساق الى التلميذ فى أسلوب التلميذ »

صدرت حديثاً :

مدمس أكسفورد

فى طبعتها الثانية اجابة لرجاء قرائها الكثيرين

العنوان :

امين دويدار : مدرسة القاصد بطنطا

ثمن النسخة ٥ مليمات

قلم خضير

بريشة ذهب عيار ١٤

مضمون ٣ سنوات

تستعمله الحكومات الشرقية

مكتبة ومطبعة خضير بشارع عبد العزيز بمصر